﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨﴾ [إبراهيم: 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من تقرير القواعد إلى تتمَّةٍ احترازيَّةٍ لدفْعِ أوهام الأفهام

بعد أن بيَّنَتِ الآية السّابقةُ قاعدةً عامَّةً في الشُّكر والكُفر، انتقل السّياق لذِكر تَتمَّةٍ لهذه القاعدة، على لسانِ موسى ﷺ ليَقَع التَّناسُب والتَّرابطُ بين الآيات، ذلك أنَّ الاشتغال بالشّكر يوجب تَزايُدَ الخيرات في الدُّنيا وفي الآخرة، والاشتغال بكُفران النِّعَم يوجب العذابَ الشَّديد وحصولَ الآفات في الدُّنيا والآخرة، وبيَّن بعدَه أنَّ منافع الشُّكر ومضارَّ الكُفران لا تَعود إلّا إلى صاحب الشُّكر وصاحِب الكُفران، أمّا المعبود والمشكور فإنّه مُتعالٍ عن أن يَنتفع بالشّكر أو يَستضرَّ بالكفران، فلا جرَم قالَ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[1]، فالانتقال هو من ذِكرِ القاعدة العامَّة إلى ذِكر تَتمَّةٍ احترازيَّةٍ ببيان أنَّ الله غنيٌّ عن شُكر الشّاكرين، ولا يضرُّه كُفر الكافرين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَغَنِيٌّ﴾: الغِنَى يُقال على ضُروب: أحدها: عدَمُ الحاجات، وليس ذلك إلّا لله تعالى، وهو المذكور في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾ [الحج: 64]، وقوله: ﴿أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: 15]، الثّاني: قِلّة الحاجات، وهو المُشار إليه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾ [الضحى: 8][2]، وصِفَة (غَنِيّ) إذا كانت لله ﷻ فهو المالِك لكلِّ شيءٍ، والغنيُّ عن كلِّ شيءٍ، أي أنّها بمعنًى يَشمل

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/67.
(2) الرّاغب، المفردات: (غنى).

ما يَرزق به خلْقَه في الدُّنيا والآخرة، فيما يَشمل الاستغناءَ والكفاية بكيفيَّةٍ لا يَعلمها إلّا هو سبحانه[1]، والمعنى المِحوريُّ للكلمة يَدور حوْل الكفاية والاستغناء.

2) ﴿حَمِيدٌ﴾: الحمْدُ: خِلاف الذَّمِّ، حَمَدْتُ الرَّجُلَ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا؛ إذا رَأَيْت منه فِعْلًا مَحمودًا، واصْطنعَ إليكَ يَدًا تَحْمدهُ عليها[2]. ورَجُلٌ محمودٌ ومُحمَّدٌ، إذا كَثُرتْ خِصالهُ المحمودةُ، والحَميدُ: مِن صفات الله تعالى وتَقدَّس؛ بمعنى المحمود على كلِّ حالٍ، وهذه اللَّفظة في الأصول (فعيل) بمعنى مفعول، ولفظة (مفعول) في هذا المكان يَنْبو عنها طبْعُ الإيمان، فَعَدلت عنها إلى حميد بمعنى محمود، وإن كان المعنى واحدًا[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نَفَتِ الآية الكريمةُ على لسان موسى ﷺ في خِطابه لبَني إسرائيل ما قد يظنُّه ظانّون بأنَّهم يُحسنون إلى الله بإيمانهم، وأنَّ أنبياءهم حين يُلحّون عليهم بالإيمان إنَّما يَبتغون بذلك تَعزيز جانِبهم والحرْصَ على مَصلحتهم، فنَبَّهَهم على هذا الخاطر الشَّيطاني حتّى لا يَسْريَ إلى نُفوسِهم فيُكْسِبهم إدْلالًا بالإيمان، فكان الأمر أن كُفْركم يا قوم، وكُفْر مَن في الأرض جميعًا لا ينفع ولا يضرّ؛ لأنَّ الله هو الغَنيُّ: الّذي لا حاجة له في شّيء، فدَخَل في عموم غِناه أنَّه غنيٌّ عن الّذين يَكفرون به، والحَميدُ: المحمود من غَيْركم مُسْتغنٍ عن حَمْدِكم.

الـلـه غـنـيٌّ عن عبادِه ولا يَرضى لهم الكُفر

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لرَبْط الآيةِ بأوَّلِ الكلام،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غنى).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (حمد).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حمد).

وبيان التَّلاحُم مع قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ بما بعْدَه من الآيات؛ تِبْيانًا لكون هذه المعطوفات من الإعلام البليغِ النّافي للشُّكوك والتُّهم، مع بيان تَتابُع السّياق في ذِكر التّرهيب والتّرغيب.

فائدةُ ذِكر القائل:

تعيينُ القائلِ مراعاةٌ للواقِعِ وإتيانٌ على المقصود

صرَّحتِ الآية بالقائل وهو موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾، بخِلاف الآية السّابقة: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ﴾ وفائدةُ ذلك "لئلّا يُتوَهَّم أنَّ هذا ممّا تأذَّن به الرَّبُّ، وإنَّما هو تنبيهٌ على كلام الله، وفي إعادة فعل القول اهتمامٌ بهذه الجملة وتَنْويهٌ بها حتّى تَبرُزَ مستقلّةً، وحتّى يَصغيَ إليها السّامعون للقرآن"[1].

دلالة ﴿إِن﴾ الشَّرْطيَّة:

إلْهابُ المؤمنين على الثَّبات وتحذير الضَّعَفَة من الانحراف

استُعملت أداةُ ﴿إِن﴾ الشّرْطية في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ﴾ للإلْهاب والتَّهييج الباعث على الثَّبات والإيمان والتَّصلُّب فيه، وتَجنُّب الكُفر وسَتْر النِّعَم الّتي أسْبَغَها الله عليهم ظاهرة وباطنة، وقد يكون من باب الشَّكِّ في إيمانهم، وتحذيرهم منه دَومًا، باعتبارِ ما يكون من الأتباعِ في قابِل الأيّام، وقد يكون للاعتبارَين، وهذا هو الأوْلى، فهو إلهابٌ وتهييجٌ للمؤمنين، وتحذيرٌ لضَعَفَتِهم.

سرُّ استعمالِ صيغةِ المضارِع:

التَّحذيرُ من الكُفرِ أمارةُ وجودِ بوادِره

دلَّ الفعل المضارع ﴿تَكۡفُرُوٓاْ﴾ على التَّحذير من وقوع الكُفر في المستقبَل؛ فإنَّ الشَّرْط مُرتهنٌ بوقوعه، وما يُناسِب هذا المعنى هو صيغة المضارع، "ولعلَّه ﷺ إنّما قالهُ عندما عايَنَ منهم دلائلَ العِناد، ومخايلَ الإصرار على الكُفر والفساد، وتيقَّنَ أنَّه لا يَنفعهم التّرغيبُ ولا التّعريضُ بالتّرهيب"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/194.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/35.

فائدة الضّمير المُنفصِل:

التّلويح بالإنذار والتّخويف مُعينٌ على الطّاعةِ والتّشريف

أتى الضّمير المنفصِل ﴿أَنتُمْ﴾ لتوكيد الضّمير المتَّصِل (واو الجماعة) في الفعل ﴿تَكْفُرُوٓاْ﴾، ووُجوده تَوْطئَة للعطْف بعدَه ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فلا يجوز العطْف على الضّمير المتّصِل إلّا بذِكر الضّمير المُنفصِل المؤكِّد لماهيَّة الكلام، وكأنَّ ذِكره إضافة إلى وظيفته النَّحوية حاكِمٌ بنهاية الزّجر والتّحذير لبَني إسرائيل؛ لِما ظهَر منهم من علائم الكُفر والعصيان[1]، ففيه تلويحٌ بتحذير خاصٍّ للمخاطَبينَ.

نكتةُ استعمال ﴿وَمَن﴾ اسمًا موصولًا:

بيان عموم استغناء الله تعالى عن كلِّ الخَلقِ

استُعمل الاسم الموصول ﴿وَمَن﴾ ليُمهِّد للجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ولو عبَّر القرآن بلفْظ (أهل) فقال: (أنتم وأهل الأرض)؛ لَما كان للجارِّ مَوضع في هذا السّياق، ثُمّ إنَّ (مَن) قد تَصلح للعاقل ولِغيْر العاقل[2] احتمالًا، فهي تَعمُّ جميعَ الكائنات الموجودة في الأرض، أمّا لو أتى بلفْظةِ (أهل) فهي للعاقل وحدَه نصًّا، فكان التَّعبير بهذا الاسم الموصول دالًّا على عمومِ كلِّ الخَلْقِ، وعلى استغناء الخالق عن كلِّ الخلْقِ.

فائدةُ استعمال ألفاظِ العموم:

استغناء الله تعالى التّامُّ عن إيمان جميع البشَر وكُفرِهم

لفْظ ﴿جَمِيعًا﴾ منصوب على الحاليَّة، وفائدته التَّأكيد لـ(مَن في الأرض) جميعًا للتّنصيص على العموم[3] والاستغراق، بأنّ إيمان البشر وكُفرهم جميعهم لن يَنفعه ولن يَضرَّه، كما أنَّ الحال ﴿جَمِيعًا﴾ حيث ذَكَرَ جهاتٍ متعدِّدةً[4]، فكلُّ نواحي الأرض بمَن عليها لا نفْع لها ولا ضرَّ عنده، فالكلمة دالَّة على الاستغناء التّامِّ وانعدامِ الحاجة إلى إيمانٍ أو كُفر.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/35.
(2) الغلاييني، جامع الدّروس العربيّة، ص: 133.
(3) الغلاييني، جامع الدّروس العربيّة، ص: 133.
(4) السّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 3/17.

علّة حذْف جواب الشّرْط:

بيان عموم الضّرر الواقع على الكافر، واستغناء الخالق

حُذف جواب الشّرْط ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ﴾ لبيان عموم الضّرر والحِرمان الّذي سَيَصير إليه مَن كفَر وجحَد نِعمة اللّه تعالى، فبَنو إسرائيل - والبشَر عمومًا - هم المَحاويجُ، واللّه غنيٌّ عن العالمين، فما أضْرَرتم يا بني إسرائيل بالكُفر إلّا أنفُسَكم حيث حَرَمْتموها من مزيد الإنعام، وعَرَّضْتموها للعذاب الشّديد إن أنتم كَفرتم.

نكتةُ حذْف متعلّق فعل الكُفر:

تنبيهُ الجميع على أنواع الكُفرِ كلِّها أوْلى من تعليقِها بأعظَمِها

حُذف متعلّق ﴿تَكۡفُرُوٓاْ﴾ ولَم يُعيَّن فيقول: (إن تكفروا باللّه)؛ لأنّ الكُفر كُفر عامٌّ متعدِّد المعاني، فالكُفر باللّه، والكُفران بنِعَمه وآلائه، فالكُفر ليس إذَن متعلّقًا باللّه وحده، وإنَّما هو متعلّقٌ بكُفران النِّعَم، فالكفر كُفرانٌ لا كفرٌ واحد، ومن ثَمّ كان الحذْف للعموم، وهو أوْقعُ في جميعِ النُّفوس، فتعليقُه باللّه تعالى قد يجعل الكُفر اليسيرَ مقبولًا بادِئَ بَدْءٍ، ثمّ هو يَكبر حتّى يَصل بالكفر الأعظَم، فكان الحذْف ليَشمل جميعَ أنواع الكُفر، فيَقع الحذَر منها كلِّها.

دلالة التّوكيد:

استمرارُ الكُفر وعمومُه يناسِبه تمامُ الاستغناء وشمولُه

أُكِّدت الفاصلة بحرْف (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ لأنَّ ما سبَق من احتمال كفرِ مَن في الأرض جميعًا مع استغناء اللّه عنهم ممّا يَحتاج إلى التّوكيد؛ فكان التّوكيد مناسبًا في هذا السّياق[1]، إضافةً إلى أنَّ التّأكيد بـ(إنَّ) معناه حتْميَّة الاستغناء عمَّن في الأرض، وإزالةُ الشَّكِّ فيه، وقد يكون الدّاعي إلى التّوكيد الرّغبة في تَقْوية مضمون الكلام عند المخاطَب وتقريره في نفْسه، وإن كان غير منكِرٍ له.

فائدةُ التّعبير بلفْظ الجلالة:

تربية المَهابة والخوف في النُّفوس

إظهار اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ دون ذكرِ الضَّمير له فائدتان: الأولى: تربية المَهابة والخوف

(1) فاضل السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 460.

في النُّفوس كافَّة، فإنه الغنيُّ عن كلِّ عِباده، المحمودُ، كما أنّ إظهار الاسم الجليل للإشارة إلى التّعظيم[1]. الأُخرى: إعادة الاسم دون الضّمير صورةٌ من صوَر الخروج عن مقتضى الظّاهر وهو نوعٌ من الإطناب[2]؛ لأنّه يأتي لزيادة التّقرير، وتأكيدِ معنًى من المعاني باللَّفظ نفْسه[3]، والتَّعبير بلفظ الجلالة أدلُّ على الخوف والزَّجر لهؤلاء حتّى لا يَتمادوا في غَيِّهم.

نكتةُ الختْم بصِفَتَي ﴿لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾:

الاستغناءُ عن الخَلقِ حمْدٌ للخالقِ

اختيرَتْ صِفَتا الغنيّ والحَميد في فاصلةِ الآية، فصِفَة (غنيّ) تَتضمَّن "تحقيرهم وعظَمَتَه، إذ له الكمال التّامُّ على الإطلاق، وقوله: ﴿حَمِيدٌ﴾ يَتضمَّن تَوبيخهم، وذلك أنّه بِصِفَةٍ توجب المَحامد كلَّها، دائمًا كذلك في ذاته لَمْ يزَل ولا يَزال، فكُفركم أنتم بإلهٍ هذه حاله غاية التَّخلُّف والخِذلان، وفي قوله أيضًا: ﴿حَمِيدٌ﴾ ما يَتضمَّن أنّه ذو آلاءٍ عليكم أيّها الكافرون به كان يَستوجب بها حَمْدَكم، فكُفركم به مع ذلك أذْهبُ في الضَّلال، وهذا توبيخٌ بيِّن"[4].

نكتةُ إيثار صيغة (فعيل) على مفعول:

حمْدُ الله ثابت ودائـم ومقترنٌ بقوَّته وعظَمته

اختيرَتْ صيغة (فعيل) في صِفَة ﴿حَمِيدٌ﴾ دون محمود؛ "لأنَّ حَميدًا يدلُّ على أنَّ صِفَة الحمد له ثابتة"[5]، إضافةً إلى أنّ صيغة فعيل ﴿حَمِيدٌ﴾ لا تُطلَق إلّا إذا اتَّصَف بها صاحبُها؛ عكْس صيغة مفعول (محمود) الّتي لا تدلُّ على ما تَدلّ عليه ﴿حَمِيدٌ﴾، فكان التَّعبير القرآنيُّ هنا مُناسبًا للقوَّة والعظَمة والاستغناء، وقد يُقال بعد هذا: إنّ صفَة ﴿حَمِيدٌ﴾ تَضُمّ ما تضمُّه صيغة (محمود) وليس العكْس.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/88.
(2) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 2/482.
(3) عبد الرّحمن بو درع، نحو قراءة نصّيّة في بلاغة القرآن والحديث، ص: 113.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/325.
(5) السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 53.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»